الفصل الأول

طرق المواجهة

اختلفت طرق مواجهة الإسلام من أعدائه ، فمشركو العرب بدأوا باضطهاد المسلمين قبل الهجرة إلى المدينة ، وطعنوا فى القرآن بأنه أساطير الأولين ، ووصفوه بأنه شعر مرة ، وسحر مرة أخرى ، ووصفوا صاحب الدعوة بأنه شاعر أو ساحر ، أو كاهن ؟ أو مريض يهذى بالغرائب ، أو طالب مُلْك وسيادة . وقاطعوا عشيرة النبى ﷺ ، وسلكوا معهم مسلكاً شبيهاً بما يسمى الآن « الحصار الاقتصادى » ، ثم اعتزلوهم فلا يَنحكون منهم ولا يُنكحونهم ، وآذوا الرسول ﷺ بالقول والفعل ولكن السابقين الأوّلين إلى الإسلام صمدوا لما ينالهم ، وكم من مرة استأذنوا صاحب الدعوة فى قتال أعدائهم فلم يأذن لهم لأن اللّه لم يأذن له بالقتال ، وهاجروا بتوجيه صاحب الدعوة إلى الحبشة مرتين . ثم كانت مبايعات الأوس والخزرج (الأنصار فيما بعد) لصاحب الدعوة ، وكانت الهجرة العظمى إلى يثرب (المدينة المنوّرة) الآن .

وهنا جُنَّ جنون قريش وحلفائها . وكانت المصادمات العسكرية المسلّحة بين الطرفين (بدر الكبرى - أُحد - الأحزاب . ثم الفتح الأعظم : فتح مكة المكرّمة) وبهذا سقطت الجبهة الداخلية التى كانت تقف فى وجه الدعوة ، اللّهم إلا بعض الجيوب التى نكس أعلامها الجهاد الإسلامى بعد الفتح الأعظم بوقت مبكر . مثل هوازن وثقيف .

● اليهود :

لجأ اليهود إلى الكيد للإسلام وإثارة الفتن ونقض العهود ، وقد واجههم صاحب الدعوة صلى اللّه عليه وسلم وأجلاهم إلى مواقع خارج المدينة ، ولقى بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة الجزاء المناسب لخيانتهم ونقضهم عهودهم مع صاحب الدعوة ولم يقاوموا مقاومة عسكرية تُذكر ، ولكنهم حملوا ضغائنهم فى

قلوبهم وأخذوا وجهة أخرى فى الكيد للإسلام فوضعوا الأحاديث عن صاحب الدعوة ، ودسوا الأقوال فى تفاسير القرآن الكريم إلا ما عصم الله ، وزوّروا التاريخ والسير ، وبعضهم أظهر الإسلام ليكيد له من الداخل وهو آمن . وقطعوا فى هذا أشواطاً بعيدة المدى .

* *

● الفُرس والروم :

هاتان هما الجبهتان الخارجيتان اللتان كانتا تتربصان بالإسلام الدوائر ، وهما الدولتان اللتان كانتا على جانب كبير من الحضارة المادية والنظم الإدارية ، وكانتا تبسطان نفوذهما على العالَم المعمور حينذاك ولهما ولاء سياسى على بعض الإمارات والقطاعات العربية نفسها فى شمال شبه الجزيرة وجنوبها وشرقها ، وكانت دولة الروم تسيطر على بلاد الشام ومصر وشمال غرب إفريقيا سيطرة تامة .

وبعد أن أدّت مواكب الدعوة الجديدة (الإسلام) واجبها داخل شبه الجزيرة ، وكانت تدخل كلها فى الإسلام ، ما عدا نصارى نجران الذين تصالح معهم صاحب الدعوة وأقرّهم على عقيدتهم بشروط أُبرمت بين الطرفين ، بعد هذا الدور العظيم الذى قامت به مواكب الدعوة داخل شبه الجزيرة العربية كان لزاماً عليها أن تخرج بالدعوة إلى العالَم الخارجى لتقيم حُجَّة الله على عباده . وهذا هو ما نهض به الخلفاء الراشدون بعد وفاة صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم .

* *

● عمل صاحب الدعوة نحو الجبهات الخارجية :

والحقيقة أن صاحب الدعوة قام - قبل وفاته - بعملين بارزين نحو الجبهات الخارجية :

الأول : يتمثل فى كتبه إلى الملوك والأمراء ورؤساء العشائر يدعوهم دعوة

سلمية إلى الاستجابة لدعوة الحق . وكان من أهم كتبه كتاباه إلى عاهلى الفُرس والروم .

والآخر : قيامه - صلى الله عليه وسلم - ببعض الأعمال العسكرية ضد الروم (غزوتا مؤتة وتبوك) وكان لقيامه بهذه الأعمال أسباب وجيهة . أما « مؤتة » فكانت رداً على قتل مبعوث (سفير) والسفراء لا يُقتلون ، ولو كان بين الدولتين حرب قائمة .

وأما « تبوك » فكانت رداً لعدوان متوقع من الروم على المسلمين تأكدت أخباره لدى صاحب الدعوة .

ومما هو معروف أن صاحب الدعوة - صلى الله عليه وسلم - جهَّز جيشاً قبيل وفاته بقليل كانت وجهته الشام ، حيث يتجمع فيها الروم . وجعل قائد الجيش أسامة بن زيد (١٨ عاماً) وتوفى عليه السلام والجيش لم يزل بالمدينة . فأنفذه أبو بكر الصدِّيق لما ولى أمر المسلمين بعد صاحب الدعوة .

* *

● عمل الخلفاء :

نهض الخلفاء الراشدون ، ومعهم المسلمون ، بأعباء الدعوة بعد وفاة النبى ﷺ وكانت كل من الفُرس والروم قد اختارت الصدام المسلح وسيلة للمواجهة ، ولم يرعب المسلمين ما عند هاتين الدولتين من حُسن الإعداد والتدريب على القتال وكثرة الجنود ، فهم - أعنى المسلمين - ما عرفوا يوماً أن الانتصار يكون بالقوة المادية وحدها ، وإنما الانتصار من عند الله يؤيد به المؤمنين العاملين من عباده : ﴿ وكَانَ حَقاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وإنهم إذا نصروا الله على أنفسهم أولاً . وامتثلوا أوامره ، واجتنبوا

---

(١) الروم : ٤٧

نواهيه ، وأقاموا منهجه فيما يتصل بالأفراد والجماعات . فإن الله ناصرهم لا محالة ، فهو القائل وقوله الصدق : ﴿ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (١) .

وأنهم إذا نصرهم الله فلا يغلبهم غالب : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ (١) .

وإذا كان توقع الموت فى القتال ، والإصابة بأضرار جسدية دون الموت من عوامل النكوص والإحجام . فإن القرآن طهَّر قلوب المؤمنين من هذه العلل . فالموت فى سبيل الله حياة وأى حياة : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... ﴾ (٣) .

والموت نفسه لا يخضع لأعمال يقوم بها الإنسان ، وإنما هو قَدَرٌ حكيم وكتابٌ معلوم عند الله ، فلا يُقرِّبه إقدام ، ولا يؤخِّره إحجام : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً ... ﴾ (٤) .

وكذلك ما يصيب الإنسان من خير أو شر ، لا يجرى اعتسافاً وإنما هو تصريف لله فى عباده . وقدر حكيم يجرى فيهم حسبما هو فى إرادته : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ... ﴾ (٥) .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلَا فِى أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٦) .

---

(١) محمد : ٧ (٢) آل عمران : ١٦٠ (٣) آل عمران : ١٦٩ - ١٧٠
(٤) آل عمران : ١٤٥ (٥) التوبة : ٥١ (٦) الحديد : ٢٢ - ٢٣

وإذا أصيب المؤمن فى نفسه أو ولده أو ماله فصبر محتسباً فجزاؤه عند اللّه موفور : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ * وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

هذه هى الروح التى ربّى عليها القرآن جنود الإيمان وأنصار الحق ، وبهذه الروح واجهوا الدنيا من حولهم ، غير عابئين بكثرة العدو لقوله تعالى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢)

* *

● مواجهة الروم :

لم يكد الأمر يستقر لأبى بكر رضى اللّه عنه داخل شبه الجزيرة العربية ، من القضاء على حركات المرتدّين ، وتعود راية الإسلام خفّاقة على ربوع شبه الجزيرة كلها . لم يكد يحدث هذا إلا ونجد أبا بكر رضى اللّه عنه يواصل المسيرة فى غزو العالَم الخارجى لنشر الدعوة وتبليغ الرسالة ، ويواجه فى عزم وإصرار أعتى قوّتين ضاربتين فى العالَم حينذاك . يواجههما فى وقت واحد . فيُسيِّر خالد بن الوليد سيف اللّه المسلول إلى العراق لمواجهة الفُرس .

ثم يُسيِّر خمس كتائب أخرى لمدن الشام لمواجهة الروم :

فكان يزيد بن أبى سفيان حامل لواء الجهاد إلى دمشق .

وكان أبو عبيدة بن الجراح حامل لواء الجهاد إلى حمص .

وكان عمرو بن العاص حامل لواء الجهاد إلى فلسطين .

---

(١) التوبة : ١٢٠ - ١٢١ (٢) البقرة : ٢٤٩

وكان شرحبيل بن حسنة حامل لواء الجهاد إلى الأردن .

وكان خالد بن سعيد بن العاص حامل لواء الجهاد فى مقدمة قوة احتياطية تعسكر فى تيماء وأمره أبو بكر ألا يغادرها إلى جهة إلا بناء على أمره .

فهذه ستة لواءات قتالية خرجت من المدينة المنوَّرة لتؤدى مهامها حسب الخطة الموضوعة ، تتكوَّن من شيوخ وشباب الصحابة ، مجاهدين فى نُصرة الحق ، منظَّمين تنظيماً حربياً حكيماً لم يُعرف له مثيل فى تاريخ شبه الجزيرة .

* *

● توحيد الجيوش والقيادة :

لما علم هرقل عظيم الروم بالحشود الإسلامية التى خرجت من المدينة قاصدة الشام ، بادر بتوحيد جيوش الروم وتوحيد قيادتها أمام المقاتلين المسلمين ، وعلم قادة الجيوش الإسلامية بما أقدم عليه هرقل ، فخطوا نفس الخطوة وتوحَّدت الجيوش التى توَّجهت إلى الشام ، وكتبوا إلى أبى بكر رضى اللّه عنه بذلك فنزل على رأيهم . ثم قال : « واللّهِ لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

ثم أرسل إلى خالد أن يغادر العراق متوجهاً إلى جبهة الروم بالشام فسار خالد فى طريق وعر لم يسلكه أحد قبله حتى لا يشتبك مع الروم قبل انضمامه إلى اللواءات الإسلامية الموحَّدة . واستغرق مسيره من العراق إلى الشام خمسة أيام لقى الجيش فيها العناء ، ومع هذا فقد أيَّدهم اللّه بمعجزات عظيمة فى أثناء سيرهم إلى الشام ، وكان وصول خالد إلى الجبهة الموحَّدة فى أوائل شهر ربيع الأول . فقسَّم خالد الجيش إلى مجموعات (كراديس) كل مجموعة تضم ألف جندى وكان عدد المجموعات ما بين الثلاثين إلى الأربعين .

قلنا : إن الجيش الموحَّد الذى كان يواجه الروم كان منظَّماً تنظيماً عسكرياً ومدنياً على درجة قصوى من الكفاءة .

فقد خرج الصحابى الجليل أبو الدرداء وكانت مهمته أن يكون قاضياً بين المقاتلين إذا حدث بين طرفين منهم نزاع . فهو « قاضى ميدان » أو طوارىء ، وهذا يبيِّن مدى الحرص الذى كان لدى المسلمين الأوائل على العدالة .

وكان يقوم بالوعظ - أو التوجيه المعنوى بلغة العصر - قاض وواعظ معاً .

وكان مع الجيش مقرىء يتلو عليهم آيات الجهاد وسورة الأنفال التى سجل الوحى الأمين فيها انتصارات المسلمين فى بدر ، وهو المقداد بن الأسود .

ثم كان أبو سفيان بن حرب - الرجل المحنَّك - هو الراوية الذى يقص عليهم أخبار الحروب والأيام .

وإلى جانب هذا كان كبار الصحابة يتبادلون الخُطَب فى الجيش يوصونه بتقوى اللّه والثبات على دينه ومصاولة الأعداء ، فلا يرهبهم العدو بكثرة عدد ، ولا بتفوق سلاح .

ثم كانت الخطة الأخيرة قبل ملاقاة العدو ، التى اختطها القائد العام للجيوش « خالد بن الوليد » فقد كان الخليفة أبو بكر قد ولاّه القيادة العامة للجبهة الموحَّدة .

وتقضى الخطة بوضع النساء والأطفال خلف الجيش المسلم ، ويوزع عليهن سلاحاً من عصى الخشب والحجارة لا ليقاتلن العدو ، ولكن ليقتلن كل جندى مسلم إذا هو ولّى هارباً من قتال العدو . (؟) وفعلاً فقد حدث ما توقعه القائد الملهَم . والنساء قمن بالمهمات التى أوكلها اليهن القائد العام . ولكن لم يقتلن أحداً . بل كان كل مَنْ يحاول الفرار يُشْهِرن سلاحهن فى وجهه فيعود إلى الجبهة من فوره .

ودارت المعركة بين الفريقين ، وأظهر المسلمون بطولات نادرة فيها ، ومع أن الروم قد حققوا تقدماً - أحياناً - فى أثناء القتال ، فإن النصر فى النهاية كان لحزب اللّه . تلك هى غزوة « اليرموك » التى حطم الحق فيها ظهر الباطل . ولما علم هرقل بانتصارات المسلمين فرَّ هارباً إلى أنطاكية ، ولحق به فلول الروم .

ودار الحوار الآتى بين هرقل وبعض قوّاده : قال هرقل : أخبرونى عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ، أليسوا بشراً مثلكم ؟

قالوا : بلى هم بشر مثلنا .

قال : أأنتم أكثر أم هم ؟

قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً فى كل موطن .

قال : فما بالكم تنهزمون ؟

فقال شيخ من كبارهم : « من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم (أى يعدلون) ، ومن أجل أنّا نشرب الخمر ونزنى ونرتكب الحرام ، وننقض العهد ، ونغضب ونظلم ، ونأمر بالسخط ، وننهى عما يُرضى اللّه . ونُفسد فى الأرض » ؟!

قال هرقل - وقد حملته الهزيمة على الصدق : « أنت صدقتنى » .

هذا الشيخ الجليل لخّص فى صدق وأمانة أسباب نصر المسلمين على الروم ، وأسباب هزيمة الروم أمام المسلمين .

ثم قال هرقل - وقد أدرك خروج ما بيده من المدن إلى أيدى المسلمين كما خرجت الشام : « أما الشام فلا شام . وويل للروم من المولود المشؤوم » ؟!

* *

● وقعة فاصلة :

لم تكن غزوة « اليرموك » آخر غزوات المسلمين للروم ، فقد وقعت بعدها وقائع أخرى مثل وقعة « أجنادين » وفتح « دمشق » ، ووقعة « فحل » وغيرها ، وقد وقعت كل هذه الوقائع فى العام الثالث عشر الهجرى .

لم تكن غزوة اليرموك - إذن - هى آخر الغزوات مع الروم ، وإنما كانت هى الضربة القاصمة . كان الروم قبلها أقوياء أعزاء ، فصاروا بعدها ضعفاء أذلة .

ثم دالت دولة الروم ، وهى أقوى دولة فى ذلك العصر ، دالت ودالت معها ممالكها ومدنها وقراها وسواحلها ، ولم يكن يدور بخلد الروم يوماً أن قوة ما تقف أمامها وتحطم فى وقت قصير صروحها الحصينة ، وعروشها الشامخة .

إنها مفاجأة من مفاجآت التاريخ وستظل تلك المفاجأة مذهلة لكل من قرأ التاريخ .

مفاجأة حافلة بالدروس والمعجزات . أمة أمية يصنع منها الإسلام فى مدى ربع قرن قوة جبارة تحمل للعالَم كله رسالة الهدى والنور وتحارب الباطل مهما تحصن بعروش القياصرة وجنودهم المدجَّجين بالسلاح .

* *

● مواجهة الفُرس :

كانت دولة الفُرس إحدى الدولتين العظميين خلال القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) بَيْدَ أن الفُرس لم تبلغ مبلغ الروم فى القوة والاتساع ، وكانت الحرب بينهما سجالاً ، وقد أشار القرآن الأمين إلى غلبة الفُرس على الروم فى أخريات أيام الدولتين قبل أن يدك عروشهما الإسلام ، لا من حيث القوة المادية فحسب التى كانت تتمتع بها الدولتان ، بل من حيث الأسس والمبادىء والقِيمَ والعقائد التى كانت شائعة فيهما .

وفى الوقت الذى أشار فيه القرآن الأمين إلى انتصار الفُرس على الروم أخبر بأن الروم سيغلبون الفُرس فى مدة وجيزة : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ ، للَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ .. ﴾ (١) .

ثم كان الإسلام هو الوارث لهما شرقاً وغرباً . ومن البديه أن مواكب الدعوة فى عصر أبى بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما قد بدأت بالاهتمام

---

(١) الروم : ٢ - ٣

بالقضاء على الروم قبل الفُرس على النحو الذى مرَّ بنا ، ولما تم لهم تحطيم قوى الروم اتجهوا بالدعوة وجهة أخرى فأيدهم الله فى الثانية كما أيَّدهم فى الأولى .

* *

● غزوة القادسية :

كانت قادسية الفُرس مثل يرموك الروم فى أن كلا منهما قصمت ظهر مَن وُجِّهَتْ إليه . فالروم لم تقم لهم قائمة بعد اليرموك ، بل بدأ العد التنازلى لها يجرى بسرعة بعد اليرموك .

وكذلك الفُرس لم تقم لهم قائمة بعد القادسية . بل كانوا مثل فارس مغوار أصابه مبارزه فى مقتل فأخذ يترنح لاختلال توازنه وإن بقى سلاحه فى يده يدفع به وهو لاهث الأنفاس ثم هوى إلى الأرض ، فإذا هو جثة هامدة .

هكذا كان وضع الفُرس بعد القادسية . وقد كان الفُرس قد أعدُّوا عُدَّتهم من الناحية المادية خير إعداد ، ونظَّموا كتائبهم القتالية تنظيماً دقيقاً ، كما كان سعد بن أبى وقاص (قائد المسلمين فى القادسية) قد أعدَّ للأمر عُدَّته بحيث لم يبق عمل مستطاع للبَشر إلا وقد وضعوه فى خطط المواجهة . ولم يبق شئ لم يعملوه تنفيذاً لقول قيوم السموات والأرض : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. ﴾ (١) .

الشئ الوحيد الذى بقى هو وعد الله للمؤمنين : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

* *

(١) الأنفال : ٦٠ (٢) الروم : ٤٧

● أيام القادسية :

وقعت القادسية فى السنة الرابعة عشرة من الهجرة الشريفة على أقوى الآراء . والتقى المسلمون فيها بالفُرس أربعة لقاءات . وتسمى هذه اللقاءات عند المؤرخين بالأيام :

فالأول يوم أرماث ، والثانى يوم أغوات ، والثالث يوم عمواس ، ثم الرابع : يوم القادسية . وفيها قُتِل « رستم » عاهل الفُرس بعد « كسرى » .

انفرط عَقْد الفُرس بمقتل « رستم » ، وكان المسلمون من قبل قد قتلوا كبار قوّاد الفُرس ، كما قتلوا من عامة جنودهم خَلْقاً كثيراً .

كانت القادسية بداية النهاية لدحر الفُرس ، وإزالة عروش الطغيان من على ظهر الأرض ، ثم الإطاحة بها فى أتون الجحيم .

تتابعت الوقائع والأحداث بين مواكب الدعوة وبين الجبهات الخارجية ، وأخذت الدعوة تحرز نصراً بعد نصر ، فشملت تلك الفتوحات أقطار شمال غرب إفريقيا ، ومنها دلفت إلى الأندلس ، ومن الأندلس طرقت أبواب أوروبا .

كما شملت مصر والإسكندرية وزحفت جنوباً حتى بلاد النوبة ثم بلاد الصين والهند شرقاً ، وكانت الفتوحات تلو الفتوحات من أجل تبليغ الدعوة لا استعماراً ونهباً واستعلاءً ، كما يجرى فى العصر الحديث . هذه الفتوحات جعلت رجلاً مثل ليوبولد فايس النمساوى الأصل (أسلم فيما بعد وتسمى بمحمد أسد) يقول : إن الدولة الإسلامية الناشئة التى أقامها محمد ﷺ فى المدينة استكملت كل مقوّمات الدولة العالَمية خلال ثمانين عاماً من قيامها ، ثم تأبت على السقوط على مدى ألف عام . ودولة الروم استكملت قيامها على مدى ألف عام. ثم سقطت سريعاً خلال مائة عام . ويهدف الأستاذ أسد من هذه المقارنة أن دولة الإسلام دولة مبادىء تنمو بسرعة وتزول ببطء . أما دولة الروم وما كان على شاكلتها فهى دولة قوة وبطش تنمو ببطء وتزول بسرعة . لأن سلطانها على النفوس ضعيف . فهى تقوم على الإرهاب والتخويف ، والإسلام قام على الإقناع وصدق التوجيه .

دانت الدنيا من أقصاها إلى أقصاها لمواكب الفتح الإسلامى ، وسجِّل وعى التاريخ حلقات وضيئة للفاتحين ، بدءاً من انتصارات الإسلام فى شبه الجزيرة ، والقضاء على الفتن والاضطرابات فيها ، ثم الانتصارات الرائعة التى حققها حملة مشاعل النور فى شرق الأرض وغربها ، وشمالها وجنوبها . إنهم لم يغزوا ما غزوا بالسيف وحده ، إنما غزوا القلوب والمشاعر بتلك المبادىء والقِيَم النبيلة من العدل والرحمة والمساواة وتحرير الإنسان من طواغيت الأرض وظلم القياصرة والأكاسرة والملوك المتوِّجين . السيف كان لا يُشهر إلا فى وجه مَن يأبى الحق ويناوئه ويريد أن يجعل من نفسه رباً للعباد يستزلهم ويخصونه بكل الولاء والخضوع .

فالإسلام عدو لكل باطل ، حرب على كل اعوجاج . جاء ليحارب كل سُبل الغى والضلال ، ويدعو العباد إلى توحيد الخالق وعبادته وإقامة أمره فى الكون كله .

ودولة هذا شأنها لا بد أن يكون لها حُسَّاد ومناهضون يتربصون بها الدوائر . وهم أهل الباطل والزيغ والانحراف فى كل عصر ومصر .

وأعداء الإسلام منذ وُجِدَ الإسلام ، ومنذ وُجِدوا هم يغيظهم من الإسلام أمران أساسيان ، ثم أمر ثالث كان ثمرة لهما :

الأمر الأول : تلك المبادىء والأسس والقِيَم التى جاء بها الإسلام وقد تجاوبت معها وانقادت بها العقول المستنيرة ، والفِطر الإنسانية السليمة فدخل الناس فى دين الله أفواجاً .

الأمر الثانى : تلك الانتصارات الرائعة - حقاً - التى حققها الإسلام فى فجر تاريخه . وعلى يد مَنْ ؟ على يد أمة أُميَّة كانت قبل الإسلام خاملة بين الأمم ، بأسها بينها شديد ، وقلوبهم شتَّى ، يخافون - لضعفهم - أن يتخطفهم الناس من حولهم فآواهم الله وأيَّدهم بنصره . وصيَّرهم بالإسلام : خير أُمة أُخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله ، ويدعون إلى الخير ، لا يخافون فى الله لومة لائم » .

الأمر الثالث : إن الإسلام - الآن - هو الصيغة المناسبة جداً لجمع البَشرية كلها على اختلاف أجناسها وطباعها ولغاتها تحت لواء واحد وهو - وحده - القادر - بحق - على صهر كل الفوارق التى شاعت بين الأفراد والجماعات ، والرجوع بالبَشرية إلى أصول جامعة لا سيد فيها ولا مسود ، ولا فاضل ولا مفضول إلا بالإيمان والعمل الصالح . أما الناس من حيث أنهم ناس ، فهم سواسية كأسنان المشط . ربهم واحد ، وأبوهم واحد ، وأمهم واحدة . ووجهتهم واحدة .

وأنه - وحده - قادر على مخاطبة العقل الحديث المثقف ، وقادر على تسوية مشكلاته وحلول معادلاته الصعبة فى كل مجال من مجالات الحياة : عقيدة ، وتعاملاً ، وسلوكاً ، ومبدءاً ، ومصيراً ، إنه الوسيلة - الوحيدة - التى - إذا أتيحت لها الفُرَص ، وأزيحت العراقيل من طريقها - هى القادرة على إعادة الطمأنينة إلى الإنسان وتهيئة السبيل له لتأدية رسالته فى الحياة عن وعى وعمق بصيرة حتى يلقى ربه .

وهذا - مع الإيجاز الشديد - يكشف لنا القناع عن سر العداء المستحكم - الآن - وقبل الآن ، الذى تبديه القوى المعاصرة ضد الإسلام .

ففى الإسلام جانبان عرفهما أعداؤه ، هما مصدر القلق والاضطراب لديهم .

أولهما : قدرة الإسلام على تكوين قوة مادية ضاربة ، تقهر مَن يقف له بالمرصاد . وتاريخه الذى أوجزنا الحديث عنه خير وأصدق شاهد على هذا الجانب .

والآخر : هو الإسلام نفسه : عقائده ، قيمه ومبادئه ، أخلاقه ، منهجه فى الحياة بكل ما فيها من مجالات وميادين .

والجانب الأول لا يقلق أعداء الإسلام مثلما يقلقهم الإسلام نفسه لأنه - أى الجانب الأول - يمكن ، وقد أمكن فعلاً ، تحصيله ، وهو القوة المادية اللازمة

فى السلم (مثل المخترعات التكنولوچية) واللازمة فى الحرب (مثل الأسلحة المتطورة التى يملكها الآن المعسكران الشيوعى والرأسمالى) .

أما الجانب الثانى .. فليس فى أى من القوى المناهضة للإسلام أن تُحصِّله إلا باعتناق الإسلام نفسه ، وهذا - عندهم - تزاح الرءوس عن الأجسام ولا يكون.

وهذا هو السبب فى أن تجمع قوى الباطل - الآن - على مناهضة الإسلام ، وتُنفق الأموال الطائلة ، وتبذل الجهود المضنية لتحقيق واحد من أمرين :

الأول : القضاء على الإسلام - كليّة - إذا أمكن .

والآخر : وقفه عند حد معيَّن ، والتقليل من خطره . وهذا هو البديل الذى اتخذ منه خصوم الإسلام عزاءً وسلوى .

وموضوع هذا الكتاب ، هو الكشف عن الوسائل التى يستخدمها الآن أعداء الإسلام من صليبيين ، ويهود ، وشيوعيين لتشويه حقائق الإسلام بُغية الوصول إلى أحد الهدفين المشار إليهما آنفاً ، ومن الخير - قبل الدخول فى صميم الموضوع - أن نعرض - فى إيجاز كذلك - لوضع الإسلام فى أوروبا بين منصفى الإسلام منهم والحاقدين عليه ، المتربصين به الدوائر .

* * *